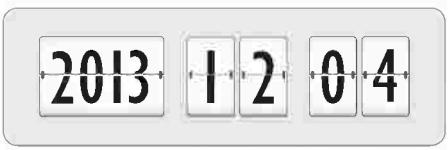

أخبرتني هيلاري أن بل قدم في أيامه الأولى حاكمًا لآركنسو اقتراحات متواضعة لإصلاح التعليم والتحكم في التلوث، إلا أن مبادرته الكبرى (شق وتحسين شبكة طرق سريعة) كانت – للأسف – باهظة التكاليف، وشديدة التأثير السلبي في شعبية بل بين سائقي الشاحنات، أصحاب شركات الأخشاب، وسائقي الحدائق المتنوعة، وغيرهم؛ لأنه اضطر – كي يتمكن من تسديد التكاليف – إلى رفع رسوم إجازات السوق، والاستياء من ذلك كلفه الانتخاب الموالي ثمنًا.

اعترضه أيضًا خلال تلك الحقبة عدد من أحداث سوء الطالع الخالص، بما في ذلك أحداث شغب في صفوف مهاجرين كوبيين محجوزين مؤقتًا من قبل الحكومة الاتحادية في فورت تشافي، آركنسو. ولسوء حظنا، اقترع الناخبون لصالح فرانك وايت، وهو تنفيذي مدخرات وقروض جمهوري غير معروف سياسيًّا لم يكن يرقى إلى مستوى خنصر قدم بل. وهكذا فإن زوجي أصبح الحاكم السابق الأصغر سنًّا في تاريخ أمريكا.

العامان الفاصلان بين مدتي حاكمية بل كانا من أكثر الأوقات بؤسًا في حياتينا، وحين يكون بل بائسًا فإن الجميع بائسون، ولاسيما أنا. وأكبر الأطفال

في حياتي ليست تشلسي. فهو – أي بل – يئن ويعن ويندب حتى أصبح عاجزة عن البقاء قريبة منه. تلك هي المدة التي أصبت فيها أنا أيضًا بالاكتئاب وقررت الانسحاب من حياته السياسية لبعض الوقت. انسحبت فعلًا، أمضيت أوقاتًا طويلة وأنا أقرأ في السرير، ناشطة في الواي دبليو سي إيه (YWCA)، ومنفجرة غضبًا في وجه كل من يزعجني، كل من كان حولي بالفعل. لم تري بعد يا دكتورة، كيف أكون حين أصاب بالجنون، إذ تصبح توبيخاتي لاسعة، يعجز من هم حولي عن التغلب عليه.

سألتها: هل هذا إنذار؟ إذا كان كذلك، فأنت لا تخيفينني.

ابتسمتْ واستأنفتْ الكلام: لأكون صادقة معك أقول: إن واقع رفضي تغيير اسمي إلى كلنتون أزعج كثيرين من أهل آركنسو، وكان مسؤولًا جزئيًّا عن عدم إعادة انتخاب بل. مازلت عاجزة عن فهم سبب قيامهم بترجمة انزعاجهم مني على هذا النحو، إلا أنني قررت بالرغم من مقتي الشديد للانحناء أمام تحاملهم المجحف، أنه من الأفضل قلب اسمي إلى كلنتون عندما ترشح بل ثانية؛ لأنني أيقنت أنه كان سيفعل. مشكلة أخرى استفزَّت الآركنسويين تمثلت بأسلوبي في الملبس.

نظرت إليها باستغراب وقلت: تبدين جذابة بنظري، يا هيلاري!

أجابت: شكرًا! ولكنك لم تريني في ذلك الوقت. شعر طويل سائب، بلا أي تبرج أو زينة، نظارات سميكة مرعبة، سروال جينز عتيق، وسترة صيادي سمك فضفاضة. في إحدى المرات، إبان أيامه بل الأولى حاكمًا، ذهبت بهذا الزي إلى حفلة راقصة، حيث كانت سائر النساء الأخريات متأنقات ومتبرجات إلى الحدود القصوى. ما هذا المظهر القذر؟! سمعت بعضهم يقول: هل يمكنك أن تتصور أن ذلك المخلوق العجيب هي زوج حاكم الولاية؟ ولكن، هل يمكنك

أن تتصوري امتناعًا عن التصويت لرجل لأن زوجه لا تتبرج أو ترتدي ملابس مختلفة؟ ما هذا الدرك الذي يمكن للناس أن ينحدروا إليه؟

لماذا كنت تختارين تلك الملابس؟ من المؤكد أن أي امرأة ذكية مثلك كانت قادرة على اختيار الزي المناسب.

لا علاقة للأمر بالذكاء؛ عليك أن تعرفي ذلك يا دكتورة، كما قلت لك، لم أكن أريد أن أصبح (فتاة وجه) تبدد وقتها على مظهرها، اسمي الأخير كان يعلن أنني مازلت أنا نفسي. فيما كانت الأخريات عاكفات على تغيير مظاهرهن، كنت أنا راغبة في تغيير العالم؛ ذلك هو ما دفعني إلى الإصرار طوعًا على ارتداء ملابس شبه خنافسية، شبه هبية؛ أنا هي أنا، وإذا لم يكن الناس مستعدين لقبولي كما أنا، فأنا لست بحاجة إليهم. رمقتني بنظرة قادرة على القتل، نظرة قالت بوضوح: بمن فيهم أنتِ!

أدركت بسرعة أنني أقبلها، بالتأكيد كما كانت، واستأنفت جلستها: سرعان ما اكتشفت أنني كنت قد أصبحت – بنظر المستائين من إدارة كلنتون في آركنسو – مانعة صواعق. حين قيل لي: أنت قذى عين قد تتسببين في خسارة بل للانتخاب، قررت عدم تحميل وجداني ذلك، وعالجت الأمر، بحثت عن الأزياء الحديثة في المكتبة، كما كنت أفعل بالنسبة إلى الأمور ذات العلاقة بالمحاماة، على الرغم من كرهي للاعتراف فأنا أستمتع بأن أبدو لطيفة. قالت بشيء من الخجل.

في أعماقي شعرت بأنني كنت قد أسهمت في هزيمة بل، وظللنا نهجو بعضنا باستمرار، ظل يحملني مسؤولية برنامجه غير المركز، زيادات الرسوم والأجور، والامتثال لضغط الرئيس كارتر من أجل حشر المهاجرين الكوبيين في باحتنا الخلفية.

كان بل نازفًا جراء خسارته، لا جدوى من التساؤل عن أينا كان أكثر تعرضًا للقهر والسحق، هو أم أنا؟ ظل الإعلام دائبًا على جرنا إلى أتون الرأي العام، وكان بل يرفض عروض المقابلات الصحفية، صرت قلقة خشية أن يخسر، ظل يمشي في أروقة السوبرماركتات ذهابًا وإيابًا، سائلًا الزبائن عما كان قد اقترفه من أخطاء، وعاكفًا على قراءة كل ما يستطيع الحصول عليه بحثًا عن جواب.

على الرغم من تعرضه لما هو قريب من الدمار جراء هزيمته، ما لبث بل أن تماسك والتحق بالعمل لدى مؤسسة حقوقية (ليتل روكية)، حيث صار يمضي معظم وقته مواصلًا الدعاية لإعادة الانتخاب، وبنوع من الولدنة راح يعترف بأخطائه كما لو كانت متعذرة على من عداه، حتى عشقه الناخبون من جديد. وهل يستطيع أحد أن يقاوم بل كلنتون إذا ما وظَّف كل ما لديه من سحر؟ اسألوني أنا. أعرفه جيدًا! استخدم الإعلانات التلفازية ببراعة فائقة لإقناع الناس بضرورة منحه فرصة أخرى، أطلق وعودًا بقفزات كبرى في التعليم وتجنب الكلام عن احتمال زيادته الضرائب.

نجحت الخطة؛ لم يكتفِ بالفوز في 1982م، بل وفاز ثانية في 1984م، ولفترتي أربع سنوات في عامي 1986م و 1990م. وفَّى بوعوده قدر استطاعته، وقدم خدمات كثيرة للولاية. إبان ولاية بل، أقدم مجلس التعليم الآركنسوي على اعتماد معايير إجازة جديدة صارمة.

ومع الوصول إلى هذا المنعطف، بات الناس ينظرون إلينا – كلينا – كما لو كنا صفقة رزمة واحدة. وَعْدُنا بتحسين حياة الآركنسويين أسهم كثيرًا في حصول سلسلة عمليات إعادة الانتخاب، دفع بقوة باتجاه إصلاح تعليمي. وتمثلت كبرى مهماتي زوجًا للحاكم برئاسة بعض لجانه الدراسية الأهم، لقد كانت مهمة عشقتها. أحد مقترحاته المهمة أن دعا إلى إجراء مسابقات كفاءة للمعلمين، خطة نجحت في استثارة موجة غضب قومية. إصلاحاتنا التعليمية الكاسحة غيرت مدارس آركنسو إلى الأبد، ما أفضى إلى تقلص في معدلات

التسرب وتزايد في درجات اختبارات الالتحاق بكليات الجامعات. سأبقى فخورة دائمًا بأنني أسهمت في رفع المستوى التعليمي لأهالي آركنسو.

أسهمت أيضًا في وضع خطة لإعادة النظر في أوضاع مرشحي جهاز العاملين لدى بل. بقدر ملحوظ من السرعة بات مستحيلًا حتى على أفراد الجهاز معرفة أي منا كان صاحب الفكرة، كانت حقبة شعار (اثنان بواحد) قد بدأت.

إلا أن ذلك ليس هو كل ما أنجزناه حين كان بل حاكمًا للولاية، فإصلاحاتنا دفعت المستفيدين إلى الالتحاق بقوة نحو العمل بعد عامين اثنين، بدلًا من تركهم عالة دائمة بحاجة مستمرة إلى المساعدات الخيرية. يؤمن بل بشعار (اليد العليا...)، ويعارض حمل راشدين سليمي الأجسام على أكتافنا أبدًا؛ إنه رجل صادق البراءة من أي أثر للتحامل العنصري وليس ممن يكثرون الخدمات اللفظية الفارغة لكسب الأصوات الانتخابية.

بدعم مني بالطبع، عزَّز بل التحرك الإيجابي؛ عيَّن المزيد من الأمريكيين الأفارقة أعضاء في اللجان، في مجالس الولاية، وفي مناصب توكيلية ذات شأن؛ وكان عدد هؤلاء أكثر ممن عينهم من سبقوه جميعهم مجتمعين. إن بل رجل غزير الإبداع؛ استحدث أسلوب حكم شعبه بحملة انتخابية دائمة؛ أيد برامج تشريعية قائمة على استطلاعات الرأي العام، ثم أقام صرح الدعم لخططنا عبر حملات تنزيلات كانت توظف سائر العلاقات العامة المتوافرة للضغط على مشرعي الولاية.

فخورة أنا بما أنجزناه – زوجي وأنا – للآركنسويين؛ هدفي في هذه الحياة هو تحسين حياة البشر. وهكذا فإنني أستطيع أن أقول من دون أي تردد إن كوني سيدة آركنسو الأولى ساعدني على متابعة السير من أجل بلوغ هدف عمري.

حتى في أفضل حالاتها لم تكن حياتي رائعة كلها (علقت هيلاري) على امتداد مدته الأولى في الحاكمية، كانت الشائعات تصلني عن تبطل بل مع من

أميل إلى تسميتهن بائعات هوى فاسقات. كان يعشق الفلتان والبقاء خارج ساحة رؤيتي، حيث يستطيع أن يلهو كما يشاء، وما أكثر ما فعل! فالنساء كن ينجذبن إليه كما تنجذب أسراب الذباب إلى الشرائط الورقية المحلاة اللاصقة.

سرعان ما غدوت ليس فقط مسكونة بالشك حول كل من حركاته وحسب، بل وشديدة الغضب من سلوكه؛ ومع أنني كنت قد عرفت ما كنت موشكة على التورط فيه حين وافقت على الاقتران به، فإن كل علاقة مع امرأة جديدة كانت تجرحني جرحًا يوازي الجرح الذي شعرت به مع أولى قصصه؛ أدمنت العيش في مهانة هادئة؛ عشقت هذا الرجل – الطفل، وصممت على العيش معه مهما كان الثمن. علاوة على ذلك، كان ثمة نوع من الأمل –على الدوام– في احتمال استقراره وإدراكه لحقيقة أنه لم يكن يحب سواي... وهذه حقيقة.

مع انتهاء الساعة تقاطعت نظراتنا وهي تنهض واقفة لتغادر. رأت نظرة الإعجاب والاحترام في عيني وردت عليهما بالمثل، حدقت كل منا بالأخرى للحظة طويلة قبل مبادرتها إلى تدوير قبضة الباب.

فكرت: كم أنا محللة نفسية محظوظة! لا أُحلِّل شخصية سيدة الولايات المتحدة الأولى السابقة وحسب، بل وهي تتجاوب معي تجاوبًا جيدًا. تلك الليلة، أقفلت باب المكتب ومشيت إلى البيت راسمة ابتسامة عريضة على وجهي.